

العصية الجاهلية في ميزان الكتاب والسنة

فريد مصطفى السلطان

قسم أصول الدين، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية، الأردن

ملخص

ظاهرة التعصب للقبيلة أو الجنس على حساب الحق والعدل، عانت منها الشعوب قديماً وحديثاً، وخصت الأمة العربية من هذا النتائج بنصيب وافر، فرأيت أن أكتب في هذا الموضوع من منظور قرآني شرعي، لأبين وجه الحق في المسألة بإذن الله.

وقد بينت في هذا البحث تعريف العصية لغة وشرعاً، والمراد بالعصية الجاهلية، كمركب إضافي ومعنى اصطلاحى، وموقف القرآن الكريم من العصية من خلال الآيات الكريمة، وما حوته من معانٍ وتوجيهات، وذكرت آراء العلماء والمفسرين المتصلة بهذا الموضوع.

ثم بينت موقف السنة المطهرة، وذكرت الأحاديث الشريفة، وآراء العلماء في شرحها وتفسيرها ودلالاتها، مع التعقيب عليها ومناقشتها.

ثم عرضت لرأي بعض علماء الاجتماع في هذا الموضوع وفي مقدمتهم العلامة ابن خلدون، وناقشت هذا الرأي، وأشارت بإيجاز إلى موقف الإسلام من العصية، والتفريق بين العصية الجاهلية التي حاربها الإسلام، ووضع الحلول الناجعة لأدوائها، وبين ما هو مركز في الفطرة الإنسانية من حب الإنسان للعشيرة أو الوطن، بحيث يدفعه إلى الارتقاء والتقدم، شرط ألا يأخذ هذا الحب شكل العنصرية، أو يترتب عليه الظلم للآخرين. ثم ختمت البحث بأهم النتائج التي توصلت إليها.

Abstract

People in old and modern days have suffered greatly from the blind devotion to the tribe and the gender discriminative attitude against Justice and attitude which is Righteousness. This is most prominent among the Arab nation which occupied the lion's share of this unjust and against god's commandments. For that reason, I decided to write about this topic from the Qur'anic and the shari'a scope, so as to reveal the righteous face of the matter. I have showed in this research the true definition of this problem from the language and shari'a points of view.

The Jahilliyet blind devotion and discrimination towards the tribe and the ruling of the Holy Qur'an is addressed. I have also cited the holy uses that are relevant to the research.

I have consulted and cited the scholar's opinions regarding this subject. Moreover, I have revealed the Sunnat's stand as ruling in the matter. In addition, I have cited the problems which are relevant to the subject. The scholars, opinions and translations and their key features, along with my comments and discussion.

I have consulted the opinions of some sociologists such as Ibn-Khaldoun and commented on his opinion. Also, I revealed the Islamic point of view against blind devotion and discriminations and the Islamic effective cures regarding the matter.

In addition, I have revealed the differences which Islam has shown between the blind devotion and the love for the nation and the tribe. This instinctive love toward the nation and tribe causes the individuals to excel and succeed on the condition not to turn this love into blind and hatred devotion, which will cause injustice to other. I conclude my research with results I have been able to reach.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، محمد الهادي الأمين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعد:

فلما كانت جذور العصبية الجاهلية مستحكمة في البيئة العربية قبل الإسلام، وبدأت ملامح هذه العصبية بالظهور مع مطلع العصر الحديث، وانبرى أعداء الإسلام لإذكاء نارها وإشعال أوارها، طامعين من وراء ذلك أن يفتتوا الأمة الإسلامية إلى كيانات إقليمية وعشائرية، رأيت من الواجب عليّ أن أبين حكم الله عز وجل في هذا الموضوع وأحذر من عاقبة انتشاره واستمراره.

ومن المعلوم أنّ الشريعة الإسلامية لا تتنافى مع الفطرة الإنسانية ولا تنتكر حبّ الوطن أو العشيرة، ولكن لا يجوز أن يكون وراء هذا الحب ظلم للآخرين، أو تمييز عليهم، أو محاباة الأقارب وتقديمهم على غيرهم، لأنّه وإن بدت هناك مصلحة آنية قصيرة النظر لهؤلاء، إلّا أنّ العاقبة وخيمة عليهم جميعاً.

ولا يخفى على كل عاقل أن أعداء الإسلام يستغلّون هذه الظاهرة لتمزيق الأمة الإسلامية، وزرع الكراهية والبغضاء بين أبنائها، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

عناصر البحث:

- ١- العصبية لغة واصطلاحاً.
- ٢- الجاهلية لغة واصطلاحاً.
- ٣- موقف القرآن الكريم من العصبية.
- ٤- موقف السنة المطهرة من العصبية.
- ٥- مناقشة حجج الدعاة إلى العصبية.
- ٦- أساليب الإسلام في مواجهة مشكلة العصبية.
- ٧- موقف الإسلام من أفضلية العرب وحبّ الوطن.
- ٨- الخاتمة

العصبية لغة: العصبية مشتقة من الفعل (عصب) ويدور أصل معنى هذه الكلمة ومشتقاتها في اللغة على الشدة والطي والتجمع والالتصام والاستدارة حول الشيء أو المكان.
ومن ذلك قولهم: عصب به إذا طاف به ولزمه، وعصبت الإبل بالماء تعصب عصبواً، إذا دارت حوله وحامت عليه^(١).

ومن ذلك: عَصَبَ الرجل الذين يتعصبون له وينصرونه من بنيه وقرابته لأبيه وقومه^(٢).
" والعين والصاد والباء أصل صحيح يدل على ربط شيء بشيء مستطيلاً أو مستديراً والعصبه هم من الرجال عشرة^(٣) وسُميت عصبية لأنها قد عصبت، أي كأنها ربط بعضها ببعض^(٤).
وتعصب: أن يدعو الرجل إلى نصره عصيته، والتألب معهم على من يناوئهم، ظالمين كانوا أو مظلومين، وقد تعصبوا عليهم إذا تجمعوا^(٥).

وفي الحديث (العصبية أن تعين قومك على الظلم)^(٦).
وقد جاء في لسان العرب " والتعصب من العصبية، والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصره عصيته والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين " ^(٧).
ويظهر من ذلك أن العصبية في دلالتها اللغوية تفيد الترابط والتماسك والتحازر، وقد غلب استعمالها في ترابط الأنساب والتناصر على أساسها بحق أو باطل.

ومن هنا جاء قول العلامة ابن خلدون (إن العصبية أتما تكون من الالتحام بالنسب أو ما في معناه) وقد علل ذلك بأن صلة الرحم أمر طبيعي في البشر، ثم قال: (ومن صلتها: الترة على ذوي القربى وأهل الأرحام أن يناههم ضيم أو تصيبهم هلكة)^(٨).
المفهوم الاصطلاحي للعصبية:

لم تعد العصبية مقتصرة على النسب فقط، بل تعدى ذلك إلى الحلف والولاء، قال ابن خلدون: (إذ نعة كل أحد على أهل ولائه وحلفه، للألفة التي تلحق النفس من احتضام جارها أو قريبها أو نسيبها بوجه من وجوه النسب)^(٩).
وأصبح للعصبية صور ومظاهر كثيرة تظهر بها، فأصبحت العصبية القبلية والطائفية والإقليمية والعنصرية والحزبية.

ومما تقدّم يمكن القول إن العصبية هي ميل ومحابة لفريق دون مراعاة لمصلحة المجموع، فيحب الإنسان عشيرته أو حزبه، فيخصّهم بعونه ومساعدته دون اعتبار لمصالح الآخرين^(١٠).

وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يبين مفهوم العصبية بشكل دقيق لا جدال فيه ولا مراء.

فقد أخرج أبو داود ^(١١) وغيره عن بنت ^(١٢) وائلة بن الأسقع، أنها سمعت أباها يقول: قلت: يا رسول الله ما العصبية؟ قال: "أن تعين قومك على الظلم" وأخرج ابن ماجه في سننه عن فُسَيْلَةَ قالت: سمعت أبي يقول: سألت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، أمن العصبية أن يحب الرجل قومه؟ قال: لا، ولكن من العصبية أن يعين الرجل قومه على الظلم ^(١٣).

فالعصبية هي أن تحابي قومك وتنصرهم على باطلهم وظلمهم، مجرد صلة القرابة أو العشيرة أو الحزب. وقد كان هذا المفهوم الجاهلي سائداً في البيئة العربية قبل الإسلام، وكان من أقوالهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً.

ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الوجه الصحيح لهذه النصرة، فعندما قال عليه الصلاة والسلام: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلوماً، فكيف ننصره ظالماً؟ قال: تأخذ فوق يديه ^(١٤).

فلو وقع قريبك أو حليفك في ظلم أو اعتداء على الآخرين، فلا تتركه وشأنه، بل من واجبك أن تنصروه وذلك بمنعه من الظلم.

ويتصرف بعض الناس في عصرنا الحاضر بأسلوب جاهلي مقنع، فإذا تعرض قريبه للظلم فإنه يهبط لنجدته ونصره، ولكن إذا كان قريبه أو حليفه ظالماً، فإنه يعتذر ويرر له، ويدعي عدم استطاعته في رده عن الظلم، وهذا سلوك جاهلي مشين، ولئن ادعى أصحابه بالمعاذير الواهنة، فإن الله تعالى مطلع على حقيقة نواياهم وأعمالهم.

وكانت العصبية قبل الإسلام عاملاً في عدم اجتماع تلك القبائل في أمة واحدة، فكانت كل قبيلة تحس أنها وحدة قائمة بنفسها في النطاق الاجتماعي، ولم يكن الجاهلي القبلي يقدر الشعور الجامع للأمة، فكانت القبيلة إذا كثرت عدد أفرادها انقسمت فأصبحت أقساماً يجمعها النسب وتفرق بينها المصالح والأهواء ^(١٥).

والعصبية غالباً ما يكون استعمالها في مقام الذم، ولذلك توصف بالجاهلية، لأن العصبية التي تعني حب القبيلة أو القرابة أو الوطن من غير عنصرية أو ظلم، ليست داخلية في الحديث عن العصبية المذمومة التي وردت النصوص من الكتاب والسنة بالتحذير منها والتي غالباً ما يطلق عليها العصبية الجاهلية.

ولذلك سنعرض لمفهوم كلمة الجاهلية لغة واصطلاحاً، وللمعنى الاصطلاحي للعصبية الجاهلية كمركب إضافي لتتضح الدلالة.

الجاهلية لغة: الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خلاف العلم، والآخر الخفة وخلاف الطمأنينة. فالأول الجهل نقيض العلم، والثاني قولهم للخشبة التي يحرك بها الجمر مجّهل، ويقال: استجهلت الريح الغصن، إذا حرّكته فاضطرب^(١٦).

وقال الراغب^(١٧): الجهل على ثلاثة أضرب: الأول هو خلوّ النفس من العلم، وهذا هو الأصل.

والثاني: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه.

والثالث: فعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً.

وقال الزبيدي^(١٨): الجهل على قسمين: بسيط ومركب.

فالبسيط عدم العلم عمّا من شأنه أن يعلم.

والمركب: اعتقاد جازم غير مطابق للواقع.

ويبدو أنّ ما ذكره الراغب في النوعين الثاني والثالث هو المراد، لأن البيئة العربية لم تكن خالية من العلم الديني أو الدنيوي على الإطلاق فقد كان هناك أناس على الحنيفية ملّة إبراهيم عليه السلام، وهناك جماعات من أهل الكتاب علاوة على ما وصلوا إليه من علوم في الأدب والفلك والتجارة، كل ذلك يشهد أن البيئة العربية لم تكن خالية من العلم تماماً، بل إن المراد بالجاهلية هو ما يشمل النوعين الثاني والثالث وهو: اعتقاد الشيء بخلاف ما هو عليه، وفعل الشيء بخلاف ما حقّه أن يفعل، سواء اعتقد فيه اعتقاداً صحيحاً أو فاسداً. الجاهلية اصطلاحاً: لقد جاءت كلمة الجاهلية في أربعة مواضع من كتاب الله عز وجل، وهي:

١- قوله تعالى: (يظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية)^(١٩).

٢- قوله تعالى: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون)^(٢٠).

٣- قوله تعالى: (ولا ترجن ترج الجاهلية الأولى)^(٢١).

٤- قوله تعالى: (إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الحمية حمية الجاهلية)^(٢٢).

ويرى الشيخ ابن عاشور^(٢٣) أن اصطلاح الجاهلية من مبتكرات القرآن، وقد وصف الله بها أهل الشرك تنفيراً من الجهل وترغيباً في العلم، وإن كانت العرب تطلق الجهل على ما قابل الحلم، كما أطلقت الجهل على ما قابل العلم.

ويرجّح الدكتور عمر فروخ^(٢٤) الوجه الأول، وهو أن الجاهلية مشتقة من الجهل الذي هو ضد الحلم لا

من الجهل الذي هو ضد العلم.

فالبينة العربية لم تكن خالية من علوم الحياة^(٢٥)، بل كان لهم شأن في الفلك والتجارة والأدب وكانت بيئة صالحة لتلقي الرسالة حيث كانوا من المهتمين بالكرم والصدق وإغاثة الملهوف وحلف الفضول خير شاهد على ذلك^(٢٦).

فالجاهلية هي كل وضع نفسي يرفض الاهداء بهدي الإسلام، ويرفض التحاكم إلى شرع الله - استخفافاً وسفهاً - وكل وضع تنظيمي يرفض حاكمية الله للبشر، ويدّعي الحاكمية للبشر من دون الله، وكل وضع يتمثل في الانحراف عن منهج الله، وكل سلوك يتناقض مع حكم من أحكام الشريعة الإسلامية. فالجاهلية تكون في التصور وتكون في الحكم وتكون في السلوك والقيم^(٢٧).

ويعرف سيد قطب الجاهلية فيقول: هي حكم البشر للبشر، والخروج من عبودية الله، ورفض ألوهية الله، والاعتراف في مقابل هذا الرفض بألوهية بعض البشر وبالعبودية لهم من دون الله. فالجاهلية ليست فترة من الزمان، ولكنها وضع من الأوضاع، وجد بالأمس، ويوجد اليوم، ويوجد غداً، فيأخذ صفة الجاهلية المقابلة للإسلام والمناقضة للإسلام^(٢٨).

فالعصبية الجاهلية كمركب إضافي هي مجموعة من الأفكار يترتب عليها سلوك منحرف يجعل الشخص يحابي فريقاً من الناس دون مراعاة لمصلحة المجموع، ويدفعه لهذا السلوك الانتماء القبلي أو الطائفي أو العنصري أو الإقليمي أو الحزبي بحيث يرفض الاهداء بهدي الإسلام.

موقف القرآن الكريم من العصبية:

قال الله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير)^(٢٩).

لما أمر الله تعالى - في الآيات السابقة على هذه الآية - عامة المؤمنين بأن يكونوا إخواناً، وأن يصلحوا بين الطوائف المتقاتلة ونهاهم عن كل ما يترتب عليه الأذى والسوء لأنفسهم، بطريق السخرية واللمز والتنايز وسوء الظن والتجسس والغيبة، ونزل الغير منزلة النفس للتأكيد على الالتزام بهذه التوجيهات، ذكرهم الله سبحانه وتعالى بأصل الأخوة في الأنساب ليكون ذلك التذكير عوناً لهم على التبصر والتفكير، وترك تلك الصفات الذميمة التي تنشأ غالباً بسبب التنافس بين الأفراد والقبائل، فبعض الناس جعل ظاهرة انقسام الأمم إلى شعوب وقبائل لتكريس العداء والحقد والتسلط، فجاء التوجيه الرباني ليؤكد أن هذا التشيع إنما كان لحكمة التعارف والتلاقي والتآخي، وإذا كان هناك نوع من المنافسة فليكن في عمل الخير وتقوى الله عز وجل فهو لا حرقوا الفطرة وقلبوا الوضع فجعلوا اختلاف الشعوب والقبائل سبباً للتناحر والعدوان، مع أن الأصل أن يكون سبباً للتلاقي والتآلف.

وكلمة (تعارفوا) في الآية تحمل من المعاني والأسس ما يقوم عليه صلاح البشرية جمعاء، لأن التعارف بين الشعوب والقبائل يدخل فيه الاستفادة الشاملة من التجارب البشرية النافعة مهما كانت اتجاهاتها، وأينما كانت أوطانها.

ويكفي أن نذكر ما قاله عليه الصلاة والسلام في غزوة بدر الكبرى (لو كان المطعم بن عدي^(٣٠) حياً فكلمني في هؤلاء النتين أطلقتهم، يعني أسارى بدر)^(٣١). فيمكن القول إن تقسيم البشر عامة إلى شعوب وقبائل إنما كان بإلهام الله تعالى، ليكون نظاماً محكماً لربط الأواصر، وتحقيق المزيد من التفاعل بحيث يعم النلس كلهم، وما انتشرت الحضارات بين البشر إلا بهذا الناموس الحكيم.

ويذكر المفسرون عدة روايات في سبب نزول قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) وكل هذه الروايات تتضافر وتؤكد نفس المبدأ الذي قرره الآية الكريمة، ومن هذه الروايات ما أخرجه ابن أبي حاتم وابن المنذر أنه لما كان يوم فتح مكة أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بلالاً رضي الله عنه حتى أذن على ظهر الكعبة فغضب الحارث بن هشام^(٣٢) وعتاب بن أسيد^(٣٣) وقالوا: أهذا العبد الأسود يؤذن على ظهر الكعبة^(٣٤).

وأخرج أبو داود^(٣٥) وابن مردويه والبيهقي في سننه عن ابن شهاب الزهري قال: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بني بياضة أن يزوجهوا أبا هند^(٣٦) امرأة منهم، فقالوا: يا رسول الله أنزوج بناتنا موالينا؟ فلأنزل الله الآية، وقال ابن شهاب الزهري: نزلت في أبي هند خاصة.

وأخرج الترمذي^(٣٧) والبيهقي في شعب الإيمان وابن مردويه وغيرهم عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن النبي صلى الله عليه وسلم طاف يوم الفتح على راحلته يستلم الأركان بمحجنه^(٣٨)، فلما خرج لم يجد مناحياً فترل على أيدي الرجال فخطبهم، فحمد الله تعالى وأثنى عليه، وقال: الحمد لله الذي أذهب عنكم عبية^(٣٩) الجاهلية وتكبرها، يا أيها الناس: الناس رجلان: برّ تقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، الناس كلهم بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب ثم قرأ قوله تعالى: (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) .. إلى قوله تعالى: (إن الله عليم خبير) ثم قال: أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فمن ظاهر الآية الكريمة والروايات التي تتحدث عن سبب نزولها تلمس تلك الحقيقة العظيمة التي جاء الإسلام ليغرسها في نفوس أتباعه، وهي التي يدعي أصحاب المدينة الغربية أنهم روادها وأول من أعلنها ونلدى بها، فقد كذبوا وزوروا وافترؤا بهتاناً مبيناً، وإن كانت الحقيقة المرة تدعونا للاعتراف بأنهم أسبق منا في العصر الحاضر إلى روح هذه النصوص، فأصبح التفاضل عندهم باعتبار ما يقدمه الفرد من خدمات ملموسة، بينما عاد الأمر عندنا إلى قيم الجاهلية، فأصبح التفاضل على أساس العشيرة ومكان الميلاد حتى قال بعضهم:

إن أحسن شهادة يستطيع أن يحصل عليها المواطن في بعض الدول العربية هي شهادة الميلاد " . أي أن انتماء القبلي أو الطائفي ومكان الميلاد هو الذي يحدد لهذا الشخص مستقبله الحياتي، لأن المنهج العام في التفاضل هو على هذا الأساس.

ونلاحظ في قوله تعالى: (وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا) علة الجعل، أي جعلناكم كذلك ليعرف بعضكم بعضاً. فتصلوا الأرحام وتعرفوا الأنساب لا للتفاخر بالآباء والقبائل، وقوله بعد ذلك (إن أكرمكم عند الله أتقاكم) تعليل للنهي عن التفاخر بالأنساب بطريق الاستئناف الحقيقي، كأنه قيل: إن الأكرم عند الله، والأرفع منزلة لديه في الآخرة والدنيا هو الأتقى، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى.

وفي قوله تعالى: (وأن ليس للإنسان إلا ما سعى) ^(٤٠). بيان إلى عدم التفريق على أساس النسب، وأنه ليس للنسب شرف يعول عليه بحيث يصبح مداراً للثواب والعقاب عند الله عز وجل ^(٤١).

ولقد أكدت الآيات القرآنية أن كل دعوة تقوم على رابطة الجنس أو النسب وحده أو العشيرة أو المصاهرة أو الوطنية فقط، إنما هي دعوة جاهلية عمياء، فقد قال سبحانه وتعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترضوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) ^(٤٢).

ففي قوله تعالى: (إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم). إشارة إلى رابطة الجنس والنسب.

وفي قوله تعالى: (وأزواجكم) إشارة إلى رابطة المصاهرة.

وفي قوله تعالى: (وعشيرتكم) إشارة إلى رابطة القومية أو القبلية.

وفي قوله تعالى: (وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها) إشارة إلى رابطة المصالح الاقتصادية.

وفي قوله تعالى: (ومساكن ترضونها) إشارة إلى رابطة الأرض والوطنية.

وفي قوله تعالى: (أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله) تنبيه صريح إلى رابطة العقيدة الإسلامية ^(٤٣). وكان القرآن الكريم يقول للمسلم هذا القول في حال الانسياق الأعمى وراء أي رابطة من روابط الجنس أو النسب أو المصاهرة أو القومية أو الأرض أو الوطنية. وفي حال اعتبار هذه الروابط أو واحدة منها فوق رابطة العقيدة والإسلام، فإن هذا الانسياق يخرج المسلم من دائرة الإسلام ويجعله يتخبط في دياجير الزيف والضلال ^(٤٤). ومن الآيات التي تبين هذا الموضوع وتوضحه قوله تعالى للمؤمنين: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون) ^(٤٥). وسبب نزول هذه الآية وما قبلها كما يذكره المفسرون ^(٤٦) عن زيد بن أرقم وغيره قال: مرّ شاس بن قيس اليهودي - وكان عظيم الكفر،

شديد الضغن على المسلمين، شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاضه ما رأى من جماعتهم وألفتهم، وصلاح ذات بينهم في الإسلام بعد الذي كان بينهم من العداوة، فقال: قد اجتمع ملأ بني قيلة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمعوا بها من قرار. فأمر شاباً من اليهود كان معه، فقال: اعمد إليهم فاجلس معهم، ثم ذكرهم [يوم] بعث وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا يتناولوا فيه من الأشعار. وكان بعث يوماً اقتتل فيه الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج. ففعل فتكلم القوم عند ذلك فتنازعوا وتفاخروا حتى توائب رجالان من الحيين، فتناولوا، وقال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددتها الآن جذعة، وغضب الفريقان جميعاً وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة. وهي حرة، فخرجوا إليها، وانضمت الأوس والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين حتى جاءهم، فقال: يا معشر المسلمين أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد أن أكرمكم الله بالإسلام وقطع به عنكم أمر الجاهلية وألف بينكم، فترجعون إلى ما كنتم عليه كفّاراً؟ الله الله! فعرف القوم أنما نزع من الشيطان، من عدوهم، فألقوا السلاح من أيديهم، وبكوا وعانق بعضهم بعضاً ثم انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، سامعين مطيعين، فأنزل الله عز وجل: (يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين)^(٤٧) يعني شاساً وأصحابه. فوضعوا السيوف على التراب وقالوا نستغفر الله ثم أقبلوا يتباكون ثم تعانقوا وأخذ بعضهم يبكي وهو يعانق أخاه.

قال جابر بن عبد الله: ما كان من طالع أكره إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأوماً إلينا بيده، فكففنا وأصلح الله تعالى ما بيننا، فما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما رأيت قط يوماً أقبح ولا أوحش أولاً وأطيب آخراً من ذلك اليوم).

فيتضح من ذلك كله أن الكفار في كل زمان ومكان يحرضون على إثارة العصبية القبلية، لأنهما تفرق صف المسلمين وتبعدهم عن دينهم وعقيدتهم.

ويكفي أن نقرأ قوله تعالى: (إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم)^(٤٨).
ويكفي أن نذكر قول رسول الله: "أبدوى الجاهلية وأنا بين أظهركم"^(٤٩).

فكل ذلك يبيننا إلى الخطر الكبير الذي يتهدد هذه الأمة بسبب إثارة العصبية والإقليميات والقوميات تاركين كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم خلف الظهور متشبثين بأفكار وفواصل فرضت على هذه الأمة من أعدائها ولم يكن للمسلمين حيلة أو اختيار في وجودها وتحقيقها.

ولكن قد تظهر بعض المظاهر السلوكية على أنها من لوازم العصبية الجاهلية وعند البحث والتحري والاستقصاء نجد أن هذا السلوك المنبعث عن العصبية في الظاهر قد يتفاوت في آثاره ودوافعه، فقد يكون سلوكاً فطرياً مركزاً في النفس الإنسانية، تصعب مدافعته كحب الإنسان لأهله ووطنه وعشيرته، وقد تقع بعض الهفوات الناتجة عن حسابات خاطئة، ولكنها لا تشكل خطأً وسلوكاً يبيي عليه الفرد أو القبيلة منهجه في الحب والبغض والحكم على الآخرين. ومن هذه المواقف التي ذكرها القرآن الكريم ما تسبب به موسى عليه السلام في حادثة مقتل القبطي الذي كان في خصومة مع رجل آخر من بني إسرائيل.

وقد جاءت الآيات الكريمة من سورة القصص لترشدنا إلى العظات والعبر المستفادة من هذه الحادثة، فهتدي بدلالتهما في التعامل مع الآخرين من أبناء ديننا وأمتنا أو من غيرهم من بقية المجتمعات والأمم.

والآيات الكريمة التي بينت هذه الحادثة هي قوله تعالى: (ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً، وكذلك نجزي المحسنين. ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها، فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه، فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين. قال ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم. قال ربّ علّ أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين)^(٥٠). وكذلك جاء ذكر هذه الحادثة في سورة الشعراء في قوله تعالى: (وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين. قال فعلتها إذاً وأنا من الضالين. ففرت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكماً وجعلني من المرسلين)^(٥١).

وقد تناول المفسرون هذه القصة بالبيان والتعقيب والردّ على الشبهات التي يثيرها الجهلة والمنحرفون حول أنبياء الله تعالى، فيطعنون في عصمتهم، ويشككون في نبوتهم وسلامة أفعالهم.

ومن هذه الأسئلة التي يثيرها المشككون: ١- إذا كان ذلك القبطي مستحقاً للقتل فلم قال موسى عليه السلام عن فعلته تلك في قوله تعالى: (فعلتها إذاً وأنا من الضالين)، وقوله تعالى: (هذا من عمل الشيطان) وقوله تعالى: (ربّ إني ظلمت نفسي فاغفر لي فغفر له) ؟

٢- وإذا كان ذلك القبطي غير مستحق للقتل فإن قتله معصية وذنب وقد عرض المفسر فخر الدين الرازي^(٥٢) لهذه الشبهات فذكرها وأجاب عنها، وكان من هذه الأجوبة المقنعة، إن ذلك القبطي كان كافراً، وقتله جليز، ولكن كان هذا القتل خلاف الأولى، فلم يكن من المناسب أن يفعل هذا الفعل في ذلك الظرف، زيادة على أن موسى عليه السلام لم يقصد القتل بدليل قوله تعالى: (فوكزه موسى فقضى عليه) ومعلوم أن الوكز لا يقتل في العادة، لأن الوكز كما بيّنه العلماء هو الدفع بأطراف الأصابع، وقيل هو الدفع والطعن والضرب بجمع الكف^(٥٣).

وكان عليه السلام شديد البطش ووافق ضعفاً في القبطي فكانت نهايته على تلك الحال. وقد نزلت آيات العتاب في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الحالات على فعله خلاف الأولى، كما في آيات العتاب في قبول الفداء من الأسرى في قوله تعالى: (ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ..) إلى قوله تعالى: (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) (٥٤). وقوله تعالى: (عيس وتولى أن جاءه الأعمى) (٥٥) وقد أجمع المفسرون على أن فعله عليه الصلاة والسلام لم يكن صغيرة ولا كبيرة، وإنما كان خلاف الأولى.

وأما ما جاء في قوله تعالى: (فعلتها إذا وأنا من الضالين) (٥٦). فلا يعني أنه صار بذلك ضالاً، بل أراد أن يبين أنه فعل ذلك وهو متحير لا يدري ما يجب عليه أن يفعله، وما يدبره، ولم يكن ذلك عن قصد وتصميم.

وفوق ذلك فالراجح أن موسى عليه السلام قد فعل هذه الفعلية قبل النبوة، ومن جَوَز الصغائر على الأنبياء قبل البعثة فلا إشكال عنده، ومن لم يجوز الصغائر قبل البعثة حمل ذلك على فعل خلاف الأولى (٥٧) فالقتل لم يكن مقصوداً، والمقتول كان كافراً، وكان فعل موسى عليه السلام خلاف الأولى في حقه، وتصرف هذا التصرف وهو مندهش في حيرة من أمره، وخصوصاً عندما رأى الذي من شيعته يستغيثه ويطلب منه النصرة، زيادة على الظلم والقهر الذي كان يعاني منه أتباع موسى عليه السلام، مما كان له أثره الواضح على نفسية موسى ومن معه، في مواجهة هذا البطش والجبروت (٥٨).

فمثل هذا السلوك لا يمكن أن يوصف بأنه نتيجة لعصبية جاهلية عمياء، بل إنه نتيجة انفعال نفسي له مبرراته وأسبابه وظروفه الخاصة به. والانفعال في مواجهة الظلم والبطش دفاعاً عن العقيدة والجماعة أمر تقره الشرائع ويسلم به الواقع.

موقف السنة المطهرة من العصبية:

لقد اهتمت السنة المطهرة اهتماماً يَبِيناً مؤكداً لما جاء في الآيات القرآنية من تحقيق الأخوة الإسلامية ومحاربة العصبية الجاهلية بكل صورها وأشكالها، وقد جاءت العبارات شديدة قاسية تناسب حال من يتعلّق بهذا الوباء الاجتماعي الذي يفتك بالفرد والمجتمع ويهدم بنيان المجتمع من أساسه.

فقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله (٥٩): " لينتهين أقوام يفتخرون بأبائهم الذين ماتوا، إنما هم فحم جهنم، أو ليكوننّ أهون على الله من الجعل (٦٠) الذي يدهده (٦١) الخراء بأنفسه، إن الله تعالى قد أذهب عنكم عبية الجاهلية، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس كلّهم بنو آدم،

وآدم خلق من تراب " وفي رواية لأبي داود ^(٦٢) " أو ليكوننَّ أهون على الله من الجعلان ^(٦٣) التي تدفع بأنفسها النتن " .

وقال عليه الصلاة والسلام ^(٦٤) : " من قاتل تحت راية عمية ^(٦٥) يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة فقتل فقتله جاهلية " .

وقال عليه الصلاة والسلام ^(٦٦) : " ليس منّا من دعا إلى عصبية، وليس منّا من قاتل عصبية، وليس منّا من مات على عصبية " وفي قوله عليه الصلاة والسلام: " ليس منّا من مات على عصبية " يفهم منه أن تكون العصبية مضمرة في قلبه، ومرغوبة عنده، وإن لم يدع أحداً، ولم يقاتل في ذلك أحداً ^(٦٧) .

وقال عليه الصلاة والسلام ^(٦٨) : " إذا رأيتم الرجل يتعزّى بعزاء الجاهلية فأعضوه بمن أبيه ولا تكنوا " . وفي رواية أخرى: " إذا سمعتم من يعتزّي بعزاء الجاهلية فأعضوه بمن أبيه ولا تكنوا " ^(٦٩) . أي أسمعوه من الكلام ما يردّه عن غيّه وضلاله، فالهدف من القسوة في خطاب هؤلاء هو ردعهم وزجرهم لعلّ الله يهديهم إلى الحق، لأنّ تعلقهم بالعصبية الجاهلية مرض نفسي اجتماعي، فهم بحاجة إلى قسوة وزجر لعلّهم يفقهوا من سكرتهم، ويعودوا إلى الحق.

وهذا الخطاب شبيه بالصدمة الكهربائية التي تستخدم في علاج بعض أصحاب الأمراض النفسية. وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " من تعزّى بعزاء الجاهلية " أي انتسب وانتمى، كقولهم: يا بني فلان يقال: عزوت الرجل وعزيتّه إذا نسبته، والعزوة اسم لدعوى المستغيث كأن يقول: يا لفلان.

وكذلك كل شيء تنسبه إلى شيء، وقيل لعطاء في حديث حدثه: إلى من تعزّيه ؟ أي إلى من تسنده ^(٧٠) . وقوله صلى الله عليه وسلم: " يتعزّى بعزاء الجاهلية " له وجهان: الأول: أن لا يتعزّى بعزاء الجاهلية ودعوى القبائل، والثاني: أن معنى التعزّي، التأسي والصبر عند المصيبة، فيقول: " إنّنا لله وإنا إليه راجعون " وفي قوله صلى الله عليه وسلم: " بمن أبيه " يعني: ذكره، أي يقول له: اعرض بأير أبيك، يجاوزه بمثل هذا اللفظ الشنيع رداً عليه لما فعله من الافتخار بقيبلته ^(٧١) .

وقد روي عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رجلاً اعتزّى، فأعضّه أبيّ بمن أبيه، فقالوا: ما كنت فحاشاً، قال: إنّنا أمرنا بذلك ^(٧٢) .

هذا وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ^(٧٣) : " من نصر قومه على غير الحق، فهو كالبعير الذي ردّي، فهو يتزع ^(٧٤) بذنبه " .

فمن أعان قومه ونصرهم على غير الحق، فهو كالبعير الذي تردى أو سقط في البئر، فيحاول البعض إخراجه من البئر بأن يأخذ بذنبه، ولكنهم لا يستطيعون إخراجه بهذه الطريقة، فهو هالك لا محالة ^(٧٥) .

وقال الخطابي: معناه أنه قد وقع في الإثم وهلك كالبعير، إذا تردى في بئر فصار يُترع بذنبه ولا يقدر على الخلاص^(٧٦).

ونلاحظ في هذه الرواية كذلك قسوة التشبيه، فمن ينصر قومه على غير الحق، ويركن إلى العصبية الجاهلية، فهو بعير أولاً، وليته بعير سالم، ولكنه بعير وقع في بئر لا يستطيع الخلاص منه، ويحاول البعض إخراجه بترع ذنبه، ومعلوم أنه لا يمكنهم ذلك، ولكن لتصوير مشهد ذلك البعير وهو يتعذب قبل هلاكه.

وما أكثر الأباغرة الهالكين الذين يجاربون دعوة الحق وأهل الخير، نصرة لزعيم قبيلتهم مع علمهم أنه على الباطل، فيهلكون أنفسهم ويخسرون دنياهم وآخرتهم. وقد بين عليه الصلاة والسلام أن سبب هلاك الأمة وخسرها شيوع العصبية الجاهلية بين أفرادها، فقال عليه الصلاة والسلام^(٧٧): "لن تفتن أمتي حتى يظهر فيهم التمايز والتمايل والمقامع، قيل يا رسول الله: ما التمايز؟ قال: التمايز عصبية يحدثها الناس بعدي في الإسلام. قيل: فما التمايل؟ قال: تميل القبيلة على القبيلة فتستحل حرمتها. قيل: فما المقامع؟ قال: سير الأمصار بعضها إلى بعض تختلف أعناقهم في الحرب".

فهذا الحديث الشريف يصف حال الأمة الإسلامية في مختلف عصورها التي ركنت فيها إلى العصبية الجاهلية فأصابها ما أصابها من ضعف وهلاك وانحيار.

وهذا الحديث كما نلاحظ معجزة من معجزات النبوة إذ أوجز أسباب هلاك الأمم وفنائها وأخير عما سيقع في هذه الأمة، إذ تبلى بالعصبية والإقليمية الضيقة، فتستأثر بعض القبائل بالامتيازات ظناً منها أن هذا يحقق الخير لها، ولكن هذا يثير ضغائن بقية القبائل، وهي إن سكنت على الظلم لعجزها إلا أنها تتربص بالأخرى الدوائر حتى إذا سنحت لها الفرصة سارت تلك القبائل والشعوب إلى بعضها البعض ليفني بعضها بعضاً في حروب داخلية شرسة مدمرة.

وقد فهم أعداء الإسلام هذه الحقيقة وأخذوا يتعاملون مع الأمة الإسلامية من هذا المنطلق، يثيرون الإقليميات والعصبيات والحزبيات حتى ترتب على ذلك ما لا يحمله أحد من حروب مدمرة نالت معظم ديار الإسلام. وقد أخرج عليه الصلاة والسلام أن التناول على الناس بالأحساب والأنساب من دعوى الجاهليين، وأن من يفتخر بآبائه وأجداده لمكانتهم ومزلتهم الدنيوية فهو على خطر عظيم.

وقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٧٨) أنه انتسب رجلان على عهد موسى عليه السلام فقال أحدهما: أنا فلان بن فلان حتى عدت تسعة، فمن أنت لا أم لك؟! فقال: أنا فلان بن فلان بن الإسلام، فأوحى الله إلى موسى أن قل لهذين المنتسبين: أما أنت أيها المنتسب إلى تسعة في النار فأنت عاشرهم، وأما أنت يا هذا المنتسب إلى اثنين في الجنة فأنت ثالثهما في الجنة". وهذا الحديث يبين أن الانتساب للأباء

المسلمين لا حرج فيه، وأنه اكتفى بالانتساب إلى أبيه المسلم، فمن أجل الإسلام وحده نوالي ونعادي ونحسب ونكره. وقد طبق المسلمون هذه المبادئ في أروع صورها، فقد آخى عليه الصلاة والسلام بين عمّه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه وبين مولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه ^(٧٩) كما سلّم أسامة بن زيد ^(٨٠) وهو ابن مولاه قيادة جيش كبير فيهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهم كما أعطى النبي صلى الله عليه وسلم القدوة العملية في تحقيق مبدأ المساواة بين الجميع حين قال لأبي ذر رضي الله عنه عندما عبّر رجلاً من المسلمين بأمره الأعجمية "أعيرته بأمره، إنك امرؤ فيك جاهلية" ^(٨١).

وهو القائل عليه الصلاة والسلام ^(٨٢) : "والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها". فمن كل ذلك ندرك حرص الإسلام على تأكيد مبدأ المساواة التامة بين المسلمين على اختلاف أجناسهم وألوانهم وقبائلهم وشعوبهم تحقيقاً لمبادئ الإسلام الكريمة التي كفلها الكتاب والسنة. ويكفي أن نذكر موقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في مرضه الذي انتقل بعده إلى الرفيق الأعلى، حين صعد المنبر وخطب المسلمين فقال ^(٨٣) : "فمن كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه..."

وأخرج أبو داود ^(٨٤) عن أسيد بن حضير ^(٨٥) رضي الله عنه أنه بينما هو يحدث القوم وكان فيه مزاح بيناً يضحكهم فطعنه النبي صلى الله عليه وسلم في خاصرته بعود، فقال أسيد: أصبرني ^(٨٦) فقال: اصطبر، فقال أسيد: إن عليك قميصاً وليس عليّ قميص، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم عن قميصه، فاحتضنه أسيد وجعل يقبل كشحه ^(٨٧)، وهو يقول: إني أردت هذا يا رسول الله.

مناقشة حجج الدعاة إلى العصبية:

ظهرت الدعوة إلى القوميات في أوروبا في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وأساس هذه الدعوة التوحّد على أساس نظرية العرق الواحد.

وهذه الدعوة وإن ظهرت في أوروبا في العصر الحاضر إلّا أنّها موجودة عند عامة الأمم والشعوب في أشكال ومظاهر مختلفة، بل إنّ هذه الظاهرة وجدت في الأمة العربية بحدّة قبل الإسلام، وما زالت بعض آثارها وشوايها ظاهرة في صور قبلية وعشائرية تخفت حيناً وتشتدّ أحياناً وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القائل: "أربع في أمّي من أمر الجاهلية، لا يتركوهنّ: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم والنياحة..." ^(٨٨).

فإن كانت الدعوة إلى العصبية والقومية علامة تحضّر وتقدم فقد عرفها العرب قبل الإسلام، وعرفتھا الشعوب البدائية في مختلف مراحل عصورها.

ونظرية التوحيد على أساس العرق الواحد منقوضة من وجوه عدّة منها:

١- أن الأنساب امتزجت والدماء اختلطت، فلا نجد في العالم عرقاً واحداً سليماً لم يختلط بغيره من العروق الأخرى.

٢- أن إثارة هذه النظرات العرقية تعمّق في الشعوب المختلفة روح الحقد والأناية والعنصرية.

٣- أن إحياء الدعوة العرقية تعمل على تفتيت الأمة وتفرّقها، ففي داخل العرق الواحد لو سلم، هناك دوائر خاصة ضيقة كالقبائل وأحزابها وبطونها وإحياء هذه النظرات يعمل على تفتيت الأمة وتفككها. ويحتاج بعض أنصاف المتعلمين بما ذكره العلامة ابن خلدون في مقدمته من اعتبار للعصبية في تحقيق الملك وجمع كلمة الأمة، ولكنه غاب عن هؤلاء أن ابن خلدون إنّما قصد العصبية المتفقة مع روح الشريعة الإسلامية.

فقد ذكر في مقدمته أن الدين يشترك مع العصبية ويتكاملان في إقامة الملك والدولة، فقد عنون لبعض فصوله "فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة.." (٨٩).

وكذلك عنون لفصل آخر فقال: "إنّ الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها" (٩٠).

فالعصبية في رأيه تعزّز الدين وتعزّز به، ولن يتحقّق للدعوة الدينية النجاح بدون عصبية، وقد بين ذلك في فصل "إنّ الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم" (٩١).

وقد استقى عنوان هذا الفصل من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بعث الله بعده نبياً إلا في منعة من قومه" (٩٢).

فابن خلدون يقرّ بكون الشارع نهي عن العصبية وذمّها، ولكنه يرى أنه يمكن التوفيق بين مبدأ العصبية والشريعة الإسلامية، لأنّه رأى في الدنيا وأحوالها وسيلة ضرورية يركبها الناس للوصول إلى الآخرة.

وضرب على ذلك مثلاً بالغضب فهو مذموم، ولكنّه مباح في مواجهة الظلم ونصرة الحق.

فالعصبية التي ذمّها الشارع إنّما هي العصبية الجاهلية التي ترفع شعار الولاء للقبيلة تحت أي ظرف وفوق أي اعتبار، كما قال الشاعر (٩٣):

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

وكان العرب يقولون: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً فصَحَّح عليه الصلاة والسلام هذا المفهوم وأقام مبدأ التناصر على حاله، فقال ^(٩٤): "تنصره ظالماً بأن تأخذ على يديه فذلك نصره" أي أن تمنعه من الظلم، فلنك إن فعلت ذلك فقد نصرته.

كما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه افتخر بجده عبد المطلب، فقال في غزوة حنين ^(٩٥): "أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب".

ولكن أحاب العلماء عن هذا بجوابين ^(٩٦):

الأول: إنه لم يذهب بهذا القول مذهب الانتساب إلى شرف الآباء على سبيل الافتخار، ولكنه ذكرهم رؤيتاً كان رآها عبد المطلب له أيام حياته، فأخسر بها قريشاً، فعبروها على أنه سيكون له ولد يسود الناس، ويهلك أعداؤه على يديه، فذكر أصحابه بذلك ليتقوى من أهزم من أصحابه، ويثق بنصر الله.

الثاني: إن الافتخار والاعتزاز المنهي عنه ما كان في غير جهاد الكفار، وقد رخص النبي صلى الله عليه وسلم الخيلاء في الحرب مع نهيه عنها في غير الحرب ^(٩٧).

وقد قال عليه الصلاة والسلام: "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموا" ^(٩٨).

فمن ذلك كله ندرك أنه لا تناقض بين مبادئ الإسلام وتشريعاته وبين ما هو مقرر في حياة الناس من احترام أهل السلطان ورؤساء القبائل، ولكن الميزان الذي تقوم عليه حياة الناس هو الاحتكام إلى شرع الله، فلا أحد مهما كانت منزلته فوق أحكام الشريعة، ولا ظلم لأحد لدنو منزلته أو حسبه، ولكن إنزال الناس منازلهم واحترام أهل الأصول الشريفة لا يتناقض مع شريعة الله، وقد قال عليه الصلاة والسلام ^(٩٩): "خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا".

فالعصبية المذمومة شرعاً، هي التي تجعل من تمسك بما يوالي ويعادي على أساسها، فنجد بعض هؤلاء يقرّبون أبناء عشيرتهم ويضعونهم في أعلى المراكز مع أنهم ليسوا أهلاً لذلك، وكذلك أبناء الإقليم الواحد يتناصرون ويتحاربون مع أن بعضهم جاحد للدين أو مفرط فيه، ولكن دعوى الجنس أو الإقليم الواحد تدفع هؤلاء لتناسي العقيدة أو تجاهلها، ويترتب على ذلك ضياع وحدة الأمة الفكرية وراء سراب الإقليمية والقبلية.

ونرى ابن خلدون ^(١٠٠) عندما يتحدث عن العصبية فإنه يقرر أن الهدف الذي تسعى إليه العصبية هو الملك، وإقامة الدولة، غير أن العصبية ينتهي دورها الإيجابي عند هذا الحد، أي عند تصيب رئيسها ملكاً بعد إسقاط الدولة السابقة، وعندئذ يبدأ دورها السلبي ذو الطابع المشاغب، ذلك الطابع الذي يأبى كل تطور لا يخدم مصالح العصبية والأنانية القبلية

أساليب الإسلام في مواجهة مشكلة العصبية:

يرفض الإسلام كل أساليب التفاوت التي تعتبرها المجتمعات الجاهلية معياراً للتفاضل بين البشر، كالجنس أو البيئة أو الشكل أو اللون أو الطبقة أو غير ذلك من المعايير.

ويقرر المنهج الإسلامي المعيار الوحيد الذي يراه أساساً للتفاضل بين البشر وهو الالتزام بدين الإسلام الذي أرسل الله تعالى به جميع رسله الكرام عليهم الصلاة والسلام.

ونلاحظ أن معيار الإسلام معيار فكري اختياري يستطيع الإنسان أن ينافس فيه، ولكن معايير الجاهلية الأخرى ليس للإنسان حيلة في كسبها أو ردّها، فما ذنب هذا الإنسان إذا ولد أسود اللون أو من طبقة متدنية أو من قبيلة معينة أو أن أهله من الشعب الفلاني، وبالتالي فإن الإسلام يدفع إلى التنافس في وجوه الخير، فيجد الإنسان الفرصة متاحة أمامه للمسابقة في البذل والتضحية والعطاء، ولا يركن إلى واقعه الذي لا حيلة له في كسبه.

ومثل هذا الأمر قريب مما هو ظاهر ومعلوم في بعض المجتمعات المعاصرة كأمریکا مثلاً، فلا يستطيع عامة الناس هناك أن يعرفوا أسماء أجدادهم أو البلاد التي كانوا منها أصلاً، ولكن المجتمع يتيح لهم فرصة التنافس الحر بين الجميع على أساس المبادئ التي ارتضوها.

ولا نشك لحظة أن هذه المبادئ لو كانت مبادئ الإسلام لعم الخير جميع أنحاء الأرض وتحققت سعادة البشرية، ولكن هبوط تلك القيم والمبادئ التي يتحاكمون إليها كانت لها آثار سلبية على البشرية كافة.

فالإسلام يعترف بالتنوع البشري، واختلاف القدرات ولكنه يقرر الأساس العقدي منهجاً لإقامة المجتمع البشري.

وقد كان هذا المنهج حدثاً فريداً في التاريخ البشري لم يخطر على بال معظم الأمم والشعوب السالفة. فالرومان واليونان والفرس أقاموا مجتمعاتهم على أساس الجنس، ولكن الإسلام أتى بهذا المنهج الفريد لبناء المجتمع ونظامه، وكان ذلك انقلاباً هائلاً في الحياة البشرية، وتكريماً للإنسان، ووضعاً للأمور في نصابها الصحيح^(١٠١).

وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب الناس جميعاً فيقول^(١٠٢): "يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى".

وكما يكفل الإسلام للإنسان المساواة في الحقوق والواجبات، فإنه يقرر تساوي الجنس البشري في نشأته فيقول سبحانه وتعالى: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساءً) ^(١٠٣) :

وينظر الإسلام للإنسان على أنه مخلوق مكرم بغضّ النظر عن نسيه وجنسه، فيقول سبحانه وتعالى: (ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً) ^(١٠٤) .

موقف الإسلام من أفضلية العرب وحب الوطن:

يتوهّم البعض أنّ الإسلام في محاربته للعصية الجاهلية يلغي كافة وجوه التفاضل بين القبائل والأمم ويغفل عن الحقيقة الكونية في أنّ البشر معادن يختلفون في استعداداتهم وقدراتهم ومواهبهم..

ولكنّ الإسلام يتعامل مع هذه الحقائق بموضوعية واتزان، فهو لا يهملها وفي نفس الوقت لا يجعلها أساساً، فقد جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ^(١٠٥) "إنّ الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم" .

وأخرج الترمذي ^(١٠٦) في سننه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: يا سلمان لا تبغضني فتفارق دينك، قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هداي الله، فقال عليه الصلاة والسلام: تبغض العرب فتبغضني" .

وذكر الألويسي في تفسيره أنّ العرب أشرف من العجم والفرس أشرف من التّبط، وبنو إسرائيل أفضل من القبط ^(١٠٧) .

وهذه الأفضلية التي بيّنها رسول الله صلى الله عليه وسلم للعرب هي أفضلية تكليفية لتحملهم مسؤولية تبليغ الإسلام إلى الدنيا كلّها على أكمل وجه، فكان لا بدّ أن يمتاز حاملوا هذه الرسالة برجولة وشجاعة فائقة وعزيمة راسخة وتحمل للشدائد عظيم ^(١٠٨) .

حتى إذا آمنوا بهذا الإسلام الذي ارتضاه الله لهم، واعتنقوا الدعوة الإسلامية وفهموا الشريعة كانوا أقدر من غيرهم على حمل التبعة وبذل التضحية ومواصلة الجهاد، وإقامة الحجة، وتوضيح مبادئ الإسلام، وتذليل العقبات التي تعترض طريق الدعوة، لا سيّما أنّ الرسالة نزلت بلغتهم، اللغة العربية ^(١٠٩) .

ولا يعني هذا القول أن كلّ عربي يمتاز على كلّ أعجمي، بل إنّ المجموع يمتاز على المجموع ^(١١٠) . وهذا كما نقول إنّ جنس الرجال يمتاز على جنس النساء، ولا يعني ذلك أنّ أيّ رجل يمتاز على أيّ امرأة.

امرأة.

وإذا تقرّر بلا مرأه شرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وآل بيته الطيبين الطاهرين، فلا يجوز لأحد ممن حاز شرف هذا النسب أن يتناول على الناس أو أن يسيء إليهم، فالحسنة في نفسها حسنة، وهي من بيت النبوة أحسن، والسيئة في نفسها سيئة، وهي من أهل بيت النبوة أسوأ وقد قيل لشريف سيء الأفعال^(١١١):

قال النبي مقال صدق لم يزل	يحلو لدى الأسماع والأفواه
إن فاتكم أصل امرئ ففعاله	تنبيكم عن أصله المتناهي
وأراك تسفر عن فعال لم تزل	بين الأنام عديمة الأشباه
وتقول إني من سلالة أحمد	أفأنت تصدق أم رسول الله

ونجد العلامة الألوسي وهو الصوفي المشهور يحذّر من ظاهرة استعطالة أولاد مشايخ الصوفية، معتمدين على ما بلغه آباؤهم من منزلة عند أتباعهم، فيقول^(١١٢):

"وأكثر ما رأينا ذلك الافتخار البارد عند أولاد مشايخ الزوايا الصوفية، فإنهم ارتكبوا كل رذيلة، وتعرّوا عن كل فضيلة، ومع ذلك استطالوا بآبائهم على فضلاء البرية، واحتقروا أناساً فاقوهم حساباً ونسباً وشرفوهم أمّاً وأباً وهذا هو الضلال البعيد، والحق الذي ليس عليه مزيد".

وكما راعى الإسلام معادن الشعوب والأفراد ولم يتجاهل تلك الحقائق الظاهرة بل هدّتها وقوّمها، فإن الإسلام لم يغفل العامل النفسي في حبّ الإنسان لقومه ووطنه فقال عليه الصلاة والسلام^(١١٣): "خيركم المدافع عن عشيرته ما لم يأثم".

وعندما خرج عليه الصلاة والسلام مهاجراً من مكة إلى المدينة التفت إلى مكة، وقال: "علمت أنك خير أرض الله وأحبّ الأرض إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت" ^(١١٤).

وعندما جاء أصيل بن سفيان الخزاعي^(١١٥) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة وأخذ يذكر له مكة وأحوالها قال له عليه الصلاة والسلام "وبها يا أصيل دع القلوب تقرّ"^(١١٦).

وهذا يدلّ على حنينه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة المكرمة مع حبه للمدينة وأهلها.

وقد يقول قائل إنّ هذا الحنين لأن مكة المكرمة أحب الأرض إلى الله، ونقول نعم إنّها كذلك وهي أيضاً البلدة التي ولد وعاش فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزل عليه الوحي فيها وقام بأعباء الرسالة، فكل ذلك له أثره البين في نفسه الشريفة عليه الصلاة والسلام.

الخلاصة:

من خلال هذا البحث نستطيع أن نخلص إلى النتائج التالية:

- ١- العصبية الجاهلية ظاهرة خطيرة في المجتمع، من أسباب شقاء البشرية وعدم استقرارها، واستمرار الصراع بين أفرادها، ولذلك اهتم القرآن الكريم كما اهتم السنة المطهرة بمحاربتها وبيان فسادها وبطلانها، لأنها من أهم الأسباب التي تؤدي إلى سفك الدماء واستباحة الحرمات وعدم الاستقرار.
 - ٢- بطلان حجج الدعاة إلى العصبية، لأن هذه الحجج لا تقوم على أرض علمية موضوعية.
 - ٣- يهتم الإسلام برابطة الأخوة الإسلامية، وهذه الرابطة هي أساس سعادة البشرية.
 - ٤- يركز أعداء الإسلام على إشغال المسلمين بعصبيات قبلية وإقليمية ليسهل السيطرة على مقدراتهم وإشغالهم بأنفسهم في صراعات داخلية.
 - ٥- يعترف الإسلام بالفطرة الإنسانية والمشاعر الخاصة من حب الإنسان لأهله وعشيرته ووطنه، ولكن وفق الضوابط الشرعية، بحيث لا يؤدي هذا الحب إلى التطاول على الآخرين وإيذاءهم وإلحاق الضرر بهم، لأن ذلك سيؤدي إلى ردود فعل معاكسة يتبعها اضطراب المجتمعات وهلاكها.
 - ٦- يؤكد الإسلام على مبدأ المساواة والعدل وعدم المحاباة بين أفراد المجتمع، وبالتالي يفسح المجال لروح المنافسة الجادة لمصلحة المجموع.
- هذا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين.

الهوامش

- (١) ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن فارس ت ٣٩٥هـ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت (٣٤٠/٤).
- (٢) موسى، حسين يوسف / الصعيدي، عبد الفتاح/ الإفصاح في فقه اللغة، ٢ ج، دار الفكر العربي - القاهرة، ط ٢، (٣٠٨/١).
- (٣) جاء في قوله تعالى " ونحن عصبه " سورة يوسف ٨.
- (٤) ابن فارس (٣٣٩/٤).
- (٥) الزبيدي، أبو الفيض محمد مرتضى، ت ١٢٠٥ هـ، تاج العروس من جواهر القاموس، ٢٠ ج، تحقيق علي شيري، دار الفكر، بيروت، ط سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤. (٢٣٧/٢).
- (٦) الهندي البرهان فوري، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين، ت ٩٧٥هـ، كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ١٨ ج، مؤسسة الرسالة، بيروت سنة ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م (٥٠٩/٣ رقم ٧٦٥٤) باب العصبية. وكذلك (٥١١/٣ رقم ٧٦٦٤). الألباني، محمد ناصر الدين، ت ٢٠٠٠م، ضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي، بيروت، ط ٣، سنة ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م (ص ٥٦٣ رقم ٣٨٦٣).
- (٧) ابن منظور، جمال الدين محمد بن مكرم، ٧١١هـ، لسان العرب، ١٥ ج، دار صادر، بيروت، ط سنة ١٩٩٧م مادة عصب (٦٠٦/١).
- (٨) ابن خلدون، عبد الرحمن، ت ٨٠٨هـ، مقدمة ابن خلدون - وهي مقدمة الكتاب المسمى (كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر) -، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م، (ص ١٠٢) الفصل الثامن.
- (٩) ابن خلدون، ص ١٠٢.
- (١٠) العصبية عند العرب، مظهر علي، مطبعة مصر شركة مساهمة سنة ١٩٢٣م (ص ٦).
- (١١) أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، ت ٢٧٥هـ، سنن أبي داود، ٤ ج، مراجعة وضبط محمد يحيى الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت، كتاب الأدب، باب في العصبية (٣٣١/٤ رقم ٥١١٧).
- السهارنفوري، خليل أحمد، ت ١٣٤٦هـ، بذل المجهود في حل أبي داود، ٢٠ ج، دار الكتب العلمية - بيروت، (٥٩/٢٠).
- (١٢) هي فسيلة بضم الفاء وفتح السين المهملة، وقيل اسمها خصيلة (السهارنفوري ٥٩/٢٠).
- (١٣) ابن ماجه، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ت ٢٧٣هـ، سنن ابن ماجه، ٤ ج، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، ط ٢ سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م، أبواب الفتن، باب في العصبية، (رقم ٣٩٩٧ ج ٢ ص ٣٦٧).
- (١٤) البخاري، محمد بن اسماعيل، ت ٢٥٦هـ، صحيح البخاري، اعتنى به أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية للنشر، الرياض سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، كتاب المظالم ص ٤٦١ رقم ٢٤٤٤.

- (١٥) فروخ، عمر، تاريخ الجاهلية، دار العلم للملايين، بيروت، ط ٢، سنة ١٩٨٤م (ص ٧٨).
- (١٦) ابن فارس، أبو الحسين أحمد، ت ٣٩٥هـ، معجم مقاييس اللغة، ج ٦، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر-بيروت، سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م (١/٤٩٠).
- (١٧) الأصبهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد ت ٥٠٢هـ، المفردات، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة-بيروت، (ص ١٠٢).
- (١٨) الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، (١٣٠/١٤).
- (١٩) سورة آل عمران ١٥٤.
- (٢٠) سورة المائدة ٥٠.
- (٢١) سورة الأحزاب ٣٣.
- (٢٢) سورة الفتح ٢٦.
- (٢٣) ابن عاشور، محمد الطاهر، ت ١٣٩٣هـ، تفسير التحرير والتنوير، ج ٣٠، الدار التونسية للنشر-تونس سنة ١٩٨٤م (١٣٦/٤).
- (٢٤) فروخ، عمر، تاريخ الجاهلية، (ص ٥٣).
- (٢٥) دروزة، محمد عزة، ت ١٩٨٤م، عصر النبي وبيئته قبل البعثة، دار البقعة العربية، بيروت، ط ٢، ١٣٨٤هـ — ١٩٦٤م (ص ٤٣٤ وما بعدها).
- (٢٦) الغزالي، محمد، ت ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م، فقه السيرة، خرّج أحاديث الكتاب ناصر الدين الألباني، دار القلم-بيروت، ط ٢ وما بعدها، سنة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م (ص ٧٢).
- (٢٧) أبو فارس، محمد عبد القادر، مفاهيم إسلامية، دار الفرقان، عمان، ط ١، سنة ١٩٩٤م (ص ١٢).
- (٢٨) قطب، سيد، ت ١٩٦٦م. في ظلال القرآن، ج ٦، دار الشروق-بيروت، ط ٧، سنة ١٣٩٨هـ — ١٩٧٨م، (٩٠٤/٦).
- (٢٩) سورة الحجرات آية ١٣.
- (٣٠) رئيس بني نوفل في الجاهلية، وقائدهم في حرب الفجار، له مواقف تدل على كرم وفضل، توفي قبل غزوة بدر وله بضع وتسعون سنة، توفي سنة ٢ هـ، ٦٢٣م، (الزركلي، ٢٥٢/٧).
- (٣١) مسند أحمد، (٨٠/٤).
- (٣٢) هو الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومي، أخو أبي جهل كان شريفاً في قومه في الجاهلية والإسلام، شهد بدرًا مع المشركين فانهزم، وأسلم يوم فتح مكة، وخرج في أيام عمر رضي الله عنه بأهله وماله إلى الشام، فلم يزل مجاهداً بالشام إلى أن مات في طاعون عمواس. العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (٢٩٣/١ رقم الترجمة ١٥٠٤).

الزركلي، خير الدين، ت ١٣٩٦هـ، ١٩٧٦م، الأعلام، ٨ ج، دار العلم للملايين، بيروت ط ٥ سنة ١٩٨٠م، (١٥٨/٢).

(٣٣) هو عتاب بن أسيد صحابي أموي قرشي، كان شجاعاً عاقلاً من أشراف العرب، أسلم يوم فتح مكة، واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على مكة عند مخرجه إلى حنين، وكان عمره إحدى وعشرين سنة، وأقره أبو بكر رضي الله عنه فاستمر فيها إلى أن مات يوم مات أبو بكر رضي الله عنه. ويذكر بعض المؤرخين أنه عاش والياً على مكة إلى أواخر خلافة عمر رضي الله عنه ابن حجر العسقلاني الإصابة رقم الترجمة ٥٣٩٣. ابن العماد الحنبلي، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد ت ١٠٨٩هـ شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ ج، دار إحياء التراث العربي - بيروت، (٢٦/١). الزركلي ١٩٩٤.

(٣٤) الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، ت ٤٦٨هـ، أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت (ص ٤١١ رقم ٧٦٥). وهناك ثلاث روايات أخرى ذكرها الواحدي في سبب نزول الآية، وكلها تؤكد على نفس المبدأ والمهدف، لم نذكرها خشية الإطالة. الألوسي، أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود ت ١١٢٧هـ، روح المعاني، ٣٠ ج، دار الفكر للطباعة، بيروت (١٠/١٦٣).

(٣٥) الأزهرى، أبو عمر نادي بن محمود، نهاية السؤل فيما استدرك على الواحدي والسيوطي من أسباب النزول، دار الصحابة للتراث القاهرة، ط ١، سنة ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م، (ص ٢٠٣). وانظر ما كتبه المؤلف الأزهرى نقلاً عن الشيخ شعيب الأرنؤوط في سند هذا الحديث في نفس الصفحة، وقد أخرج هذه الرواية أبو داود في مراسيله عن ابن شهاب الزهرى، وقال أبو داود روي بعضه مسنداً وهو ضعيف، أبو داود السجستاني، سليمان بن الأشعث، ت ٢٧٥هـ، المراسيل، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، ط ١، سنة ١٤٠٨هـ - بيروت (ص ١٩٥) / البيهقي، أحمد بن الحسين ت ٤٥٨هـ، السنن الكبرى، ١٠ ج، تحقيق محمد عبد القادر عطا، مكتبة دار الباز مكة المكرمة ط ١٤١٤هـ سنة ١٩٩٤م (١٣٦/٧) باب لا يرد نكاح غير الكفو إذا رضيت به الزوجة ومن له الأمر معها وكان مسلماً.

- الألوسي (١٠/١٦٣) / السيوطي، جلال الدين، ت ٩١١هـ، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، ٨ ج، دار الفکر - بيروت (٧/٥٧٨).

(٣٦) أبو هند الحجام مولى بني بياضة، يقال اسمه عبد الله، وقيل اسمه يسار، حجج رسول الله وتخلّف عن غزوة بدر، ثم شهد المشاهد بعدها، أرسله أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى زياد بن لبيد عامل كنده وحضرموت، يخبره باستخلافه بعد رسول الله. ابن حجر العسقلاني / الإصابة (٤/٢٠٨ رقم ١١٩٣) وانظر الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر على هامش الإصابة في نفس الصفحة.

(٣٧) الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، سنن الترمذي، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، المكتبة الإسلامية، سوريا (٣٨٩/٥ رقم ٣٢٧٠) وقال الترمذي: حديث غريب، وفي الباب روايات عن أبي هريرة وابن عباس رضي الله عنهما.

(٣٨) المحجن: العصا المعوجة كالصولجان، والعصا معقفة الرأس (الزبيدي، (١٣١/١٨) باب حجن).
 (٣٩) الكبر، وتضم عينها وتكسر، وهي فُعُولَةٌ أو فُعَيْلَةٌ، فإن كانت فُعُولَةٌ فهي من التعبية، لأن المتكبر ذو تكلف وتعبية، خلاف من يسترسل على سجيته، وإن كانت فُعَيْلَةٌ فهي من غُباب الماء، وهو أوله وارتفاعه. وقيل: إن اللام قلبت ياء. وقيل هو من العب أي الشرب بلا تنفس. وقال الأزهري: بل هو مأخوذ من العب، وهو النور والضياء، ويقال: هذا عب الشمس، وأصله: عبو الشمس. ابن الأثير الجزري، محمد الدين أبو السعادات ت ٦٠٦هـ، النهاية في غريب الحديث والأثر، ٥ ج، مطبعة أنصار السنة المحمدية - باكستان (١٦٩/٣).

(٤٠) سورة النجم ٣٩.

(٤١) الألوسي، روح المعاني، (٤٤/١٤).

(٤٢) سورة التوبة ٢٤.

(٤٣) سيد قطب، في ظلال القرآن، (ج ٢ ص ١٦١٥).

(٤٤) علوان، عبد الله ناصح، ت ١٤٠٨هـ ١٩٨٧م، القومية في ميزان الإسلام، دار السلام ط ٤ سنة ١٤١٦هـ (ص ٥٦).

(٤٥) سورة آل عمران آية ١٠٣.

(٤٦) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، ت ٣١٠هـ، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ٣٠ ج، دار الفكر - بيروت، الطبعة الأخيرة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م، (٣٥/٤). الواحدي، أبو الحسن علي بن أحمد، ت ٤٦٨هـ، أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية بيروت، ط ١، سنة ١٤١١هـ ١٩٩١م (ص ١١٩، ١٢٠ رقم ٢٣٢) وهو حديث مرسل عزاه السيوطي في الدر المنثور (٢٧٨/٤) إلى ابن جرير الطبري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم، كما أخرجه الفريابي والطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما، وانظر: رضا، محمد رشيد، ت ١٣٥٤هـ، ١٩٣٥م، تفسير المنار ١٢ ج، دار المعرفة - بيروت، ط ٢، (١٥/٤).

(٤٧) سورة آل عمران ١٠٠.

(٤٨) سورة آل عمران ١٠٠-١٠١.

(٤٩) الواحدي، أسباب النزول ص ١١٩ رقم ٢٣١، ٢٣٢ الزيلعي، جمال الدين أبو محمد عبد الله بن يوسف بن محمد، ت ٧٦٢هـ، تخریج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف للزمخشري، ٤ ج، تحقيق سلطان الطيشتي، دار ابن خزيمة الرياض، ط ١ ١٤١٤هـ، (٢٠٨/١) رقم ٢١٩. الطبري، (٢٣/٤). ابن كثير، إسماعيل بن عمر، ت ٧٧٤هـ تفسير القرآن العظيم، دار الفكر - بيروت سنة ١٤٠١هـ (٣٨٩/١).

السيوطي، الدر المنثور في التفسير بالمأثور، (٢٧٩/٢). السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، دار إحياء العلوم-بيروت، ط٧، سنة ١٩٩٠م ص ٥٥.

٥٠) سورة القصص ١٤-١٧.

٥١) سورة الشعراء ١٩-٢١.

٥٢) فخر الدين الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، ت ٦٠٦هـ، عصمة الأنبياء، دار المطبوعات الحديثة-جدة ط١ سنة ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م (ص ٦٢).

٥٣) الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد، ٥٠٢هـ، المفردات في غريب القرآن، تحقيق محمد سيّد كيلاني، دار المعرفة بيروت، ص ٥٣١. الفيروز أبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، ت ٨١٧هـ، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٥، سنة ١٤١٦هـ ١٩٩٦م مادة (وكر) ص ٦٨٠.

٥٤) سورة الأنفال ٦٧-٦٨.

٥٥) سورة عبس ٢، ١.

٥٦) سورة الشعراء ٢٠.

٥٧) فخر الدين الرازي، محمد بن عمر بن الحسن، ت ٦٠٦هـ، التفسير الكبير، ٣٢ ج، دار الفكر-بيروت، ط ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.

٥٨) قطب، في ظلال القرآن، ٢٠/٢٦٨٣ وما بعدها.

٥٩) الترمذي، كتاب المناقب، باب في فضل الشام واليمن ٧٣٤/٥ رقم ٣٩٥٥. وقال حديث حسن، وانظر كذلك الحديث الذي بعده رقم ٣٩٥٦ وقال الترمذي: "هو أصح من الحديث السابق" وهو آخر حديث في سنن الترمذي.

٦٠) الجُعَل: حيوان معروف كالخنفساء. ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث ٢٧٧/١.

٦١) يدهده: يدرج (ابن الأثير الجزري، أبو السعادات المبارك بن محمد، جامع الأصول من أحاديث الرسول، ١١ ج، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط - مكتبة الحلواني - دمشق ط سنة ١٣٨٩هـ ١٩٦٩م (١٠/٦١٨).

٦٢) أبو داود السجستاني، كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب ٣٣١/٤ رقم ٥١١٦ وانظر في نفس الصفحة الأحاديث التي ساقها تحت "باب في العصبية".

٦٣) الجُعَلان: بكسر الجيم وسكون العين: جمع جعل بضمّ وفتح، دويبة سوداء تدير الخراءة بأنفها (السهار نفوري، ٥٨/٢٠ كتاب الأدب، باب في التفاخر بالأحساب).

٦٤) النيسابوري، مسلم بن الحجاج ت ٢٦١هـ، صحيح مسلم، ٥ ج، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، في الإمارة باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن (٣/١٤٤٦) رقم (١٨٤٨) وابن ماجه رقم ٣٩٤٨ في الفتن باب العصبية.

(٦٥) عمية: بضم العين وكسرها، والميم مكسورة مشددة، والياء مشددة أيضاً، وهي الأمر الأعمى لا يستبين وجهه كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور، وقال إسحق بن راهويه هذا كنتاقل القوم للعصية (النوي، محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف، ت ٦٧٦هـ، شرح صحيح مسلم، دار الفكر - بيروت، (٢٣٨/١٢) باب وجوب ملازمة المسلمين.

(٦٦) أبو داود السجستاني، ٣٣٢/٤ رقم ٥١٢١.

(٦٧) السهار نفوري، بذل المجهود، ٦١/٢٠.

(٦٨) حنبل، أحمد، ت ٢٤١هـ، المسند، مؤسسة قرطبة، مصر (١٣٦/٥). الطبراني، سليمان بن أحمد بن أحمد بن أيوب، ت ٣٦٠هـ المعجم الكبير ٢٠ ج، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، ط ٢ سنة ١٤٠٤هـ ١٩٨٣م مكتبة العلوم والحكم - الموصل (١٩٨/١). وانظر البغوي، الحسين بن مسعود ت ٥١٦هـ، شرح السنة، تحقيق زهير الشاويش، شعيب الأرنؤوط، المكتب الإسلامي - بيروت ط ١ سنة ١٣٩٩هـ ١٩٧٩م (١٢٠/١٣) باب التعزّي بعزاء الجاهلية.

(٦٩) أحمد بن حنبل، في المسند ١٣٦/٥، الألباني، محمد ناصر الدين، ت ٢٠٠٠م، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٣، سنة ١٤٠٨هـ ١٩٨٨م. (١٦٧/١) رقم ٦١٩.

(٧٠) البغوي، شرح السنة، ١٢١/١٣، باب التعزّي بعزاء الجاهلية.

(٧١) البغوي، شرح السنة، ١٢١/١٣.

(٧٢) البنا، أحمد عبد الرحمن، ت ١٣٧١هـ، ١٩٥١م، الفتح الرباني لترتيب مسند الامام أحمد، دار الشهاب القلعة. (٢٢٩/١٩) وقال الساعاتي: أخرجه النسائي وابن حبان والطبراني وصححه السيوطي.

(٧٣) أبو داود (٣٣١/٤ رقم ٥١١٧) باب في العصية.

(٧٤) أصل الترع: الجذب والقلع، ومنه نزع الميت روحه، ونزع القوس إذا جذبها. ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث، ٥ ج، تحقيق محمود الطناحي، طاهر الزاوي، مطبعة أنصار السنة المحمدية، باكستان، (٤١/٥)، الزبيدي، تاج العروس ٤٧٣/١١.

(٧٥) السهار نفوري، بذل المجهود (٥٩/٢٠).

(٧٦) أبادي، محمد شمس الحق، ت ١٣٢٩هـ، ١٩١١م، عون المعبود شرح سنن أبي داود، ١٠ ج، دار الكتب العلمية - بيروت، ط ٢، سنة ١٤١٥هـ (١٨/١٤).

(٧٧) الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله، ت ٤٠٥هـ، المستدرک علی الصحیحین، ٤ ج، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، سنة ١٤١١هـ ١٩٩٠م (٥٦٩/٤).

(٧٨) أحمد بن حنبل، المسند (١٢٨/٥).

- (٧٩) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك، ٢١٣هـ، السيرة النبوية، ٤ ج، تحقيق طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة (١٠٩/٢).
- (٨٠) الكاند هلوي، محمد يوسف، حياة الصحابة، ٤ ج، دار الفكر - بيروت ط ١ سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م (٤٣٢/١).
- (٨١) البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري ت ٢٥٦هـ تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، بيروت، ط ٣، سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، باب المعاصي من أمر الجاهلية ٢٠/١.
- (٨٢) البخاري ١٢٨٢/٣ باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان.
- (٨٣) الميثمي، علي بن أبي بكر، ت ٨٠٧هـ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ١٠ ج، دار الريان - القاهرة سنة ١٤٠٧هـ - ٢٦/٩.
- (٨٤) أبو داود، سنن أبي داود، ت ٢٧٥هـ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، دار الفكر - بيروت كتاب الأدب، باب قبلة الجسد ٣٥٦/٤ رقم ٥٢٢٤ وانظر شرح السنة للبخاري ١٠/١٦٨.
- (٨٥) أسيد بن حضير: كان أبوه فارس الأوس يوم بعث، وكان أسيد من السابقين في الإسلام. وهو أحد النقباء ليلق العقبه، وكان ممن ثبت يوم أحد وجرح سبع جراحات، توفي في خلافة عمر رضي الله عنه، ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، (١/٦٤).
- (٨٦) أصبرني: قدي من القود وهو القصاص، واصطبر أي استقد (ابن الأثير الجزري)، النهاية في غريب الحديث ٨/٣.
- (٨٧) الكشح: ما بين الخاصرة إلى الضلع الخلفي. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبد القادر، ٦٦٠هـ، مختار الصحاح، مكتبة لبنان، ص ٢٣٨.
- (٨٨) النيسابوري، أبو الحسين مسلم بن الحجاج، ت ٢١٦هـ، صحيح مسلم، ٥ ج، دار ابن حزم، بيروت، ط ١ سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م (٥٣٦/٢ رقم ٩٣٤) في كتاب الجنائز، باب التشديد في النياحة.
- (٨٩) ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون ت ٨٠٨هـ، مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية - بيروت ط ١ سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م (ص ١١٩).
- (٩٠) ابن خلدون ص ١٢٥.
- (٩١) ابن خلدون ص ١٢٦.
- (٩٢) أحمد بن حنبل في المسند ٥٣٣/٢.
- (٩٣) البيت لدريد بن الصمة، انظر ابن هشام الأنصاري، جمال الدين، ت ٦٧١هـ، مغني اللبيب عن كتب الأعراب، تحقيق د. مازن المبارك، محمد علي حمد الله، دار الفكر - بيروت (ص ٨٥٣)، وعزاه المحققان إلى خزانة الأدب (٥١٣/٤).

- (٩٤) البخاري ص ٤٦١ رقم ٢٤٤٤.
- (٩٥) البخاري، كتاب المغازي، باب قول الله تعالى: (ويوم نحين إذ أعجبكم كثرتمكم) ص ٨١٤، رقم ٤٣١٥. مسلم ١٤٠٠/٣ رقم ١٧٧٦ كتاب الجهاد والسير، باب في غزوة حنين.
- (٩٦) الغوي ١٢٧/١٣.
- (٩٧) مسند الإمام أحمد ٤٤٥/٥، أبو داود السجستاني ٥٠/٣ رقم ٢٦٥٩ باب في الخيلاء في الحرب. الشوكاني، محمد بن علي ت ١٢٥٥هـ، نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار، نشر إدارات البحوث العلمية بالرياض، ٦٨/٨ باب استحباب الخيلاء في الحرب.
- (٩٨) ابن ماجه ٣١٧/٢ رقم ٣٧٦٥ باب إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه، وقال البوصيري في الزوائد هذا إسناد ضعيف لضعف سعيد بن مسلمة، وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى. ولكن هذا الحديث ورد من طرق متعددة يقو بها بعضها بعضاً، فقد أخرجه البزار عن أبي هريرة والحاكم عن جابر والطبراني عن ابن عباس وابن عساكر عن أنس وقد رمز له السيوطي بالصحة في الجامع الصغير وذكر عدداً من أهل العلم ممن أخرجه من طرق مختلفة كما أخرجه الألباني في صحيح الجامع الصغير. السيوطي، الجامع الصغير، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ٤ (ص ١٦)، الهيثمي، (١٥/٨) كتاب الأدب، باب إكرام الكريم. الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي - بيروت، ط ٣ سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م (١١١/١ رقم ٢٦٩). السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة مكتبة الخانجي بمصر، مكتبة المثنى بغداد سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م ص ٣٣.
- (٩٩) البخاري، صحيح البخاري، عناية أبو صهيب الكرمي، بيت الأفكار الدولية الرياض، ط ١، سنة ١٤١٩هـ — ١٩٩٨م، ص ٦٤٧ رقم ٣٣٧٤ كتاب أحاديث الأنبياء، باب (أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت) سورة البقرة ١٣٣. مسلم رقم ٢٣٧٨ في الفضائل، باب من فضائل يوسف عليه السلام.
- (١٠٠) ابن خلدون، المقدمة ص ١٢٨.
- (١٠١) زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، مؤسسة الرسالة، ط ٣، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م (ص ٩٧).
- (١٠٢) أحمد بن حنبل في المسند (٤١١/٥).
- (١٠٣) سورة النساء آية ١.
- (١٠٤) سورة الإسراء آية ٧٠.
- (١٠٥) مسلم ١٤٢٣/٤ كتاب الفضائل رقم ٢٢٧٦، باب فضل نسب النبي والترمذي، في المناقب، باب ما جاء في فضل النبي ٥٨٣/٥ رقم ٣٦٠٦ وقال حسن صحيح غريب.
- (١٠٦) الترمذي، كتاب المناقب، باب مناقب في فضل العرب ٧٢٣/٥ رقم ٣٩٢٧ وقال: هذا حديث حسن غريب.
- (١٠٧) الألويسي، روح المعاني ١٦٤/٢٥.

- ١٠٨) انظر الكرمي، مرعي بن يوسف، ت ١٠٣٣هـ، مسيوك الذهب في فضل العرب، تقديم وتعليق علي حسن عبد الحميد، دار عمّار، الأردن، ط١، سنة ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م (ص ٢٨ وما بعدها).
- ١٠٩) علوان، عبد الله ناصح، القومية في ميزان الإسلام، دار السلام مصر، ط٤، سنة ١٤١٦هـ — ١٩٩٦م (ص ٥٨ وما بعدها).
- ١١٠) الألوسي ١٦٤/٢٥.
- ١١١) الألوسي ١٦٥/٢٥.
- ١١٢) الألوسي ١٦٧/٢٥.
- ١١٣) أبو داود ٣٣٢/٤ رقم ٥١٢٠ كتاب الأدب، باب في العصبية (انفرد به أبو داود وسنده ضعيف).
- ١١٤) أحمد بن حنبل في المسند ٣٠٥/٤.
- ١١٥) قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يضرب الحجاب على أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت له عائشة: كيف تركت مكة؟ فقال: اخضرت أجنائها وبيضت بطحاؤها... "ابن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق علي محمد البجاوي، (٩٢/١).
- ١١٦) ابن حجر العسقلاني، الإصابة (٩٢/١).